

اللغة بين وظيفتي الاتصال ونقل القيم

أ.د. أحمد عزوز قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والفنون

- جامعة وهران 1 - أحمد بن بلة -

مقدمة

إنّ دراسة اللغة هي دراسة عملية الاتصال التي تستخدم في أغراض عديدة، ومواقف شتى وتشتمل على أشكال من التفاعل مع أشخاص آخرين، ويحتاج الناس إليها في الظروف المختلفة، وقضاء المصالح في مجرى الحياة اليومية، ويوظفونها كي يحافظوا على علاقاتهم بالآخرين، والحصول منهم على المعلومات أو إعطائهم أخرى، ومعنى ذلك إنهم يسعون إلى تحقيق عدّة وظائف في آن واحد¹.

وفي ضوء ذلك تتشكّل العلاقة الوطيدة والثيقة بين المجتمع ولغته، فهي علاقة اجتماعية تبادلية، فالكائن ينمو ويتأثر بمحيطه وسياقه، وبالقدر الذي تتمّ فيه رعاية اللغة والمحافظة على أصولها وثوابتها، فإنّها تتبوأ دورها الريادي والحضاري وتحافظ عليه.

وإذا كان البعض يعتقد أنّ اللسان العربي هو المدخل إلى تراجعنا عن دورنا الحضاري، وعدم قدرتنا على مواكبة النمو والخروج من ربقة التخلف، فإنّ اللسان عند الشعوب المتقدّمة هو الطريق، والبوابة التي تدخل منها للمحافظة على القيمة التي يحتلها اللسان في حياة الإنسان عموماً، وفي حياة الشعوب، والصراع القائم بينها ومسار النفوذ الاقتصادي والسياسي والثقافي خصوصاً².

وتكون من وظائفه التربية والتهذيب، والكلمة الدالة هي القادرة على الانطلاق من المخزون القيمي لتلمس واقعا يعيشه الفرد والمجتمع، وتمحو الشوائب وتكسر الأصفاد والأغلال ما تمّ اكتسابه من قيم امتدّت في الزمان والمكان³.

ونلاحظ مثل ذلك فيما فعلته فرنسا من تدمير في الجزائر لما أنجزته اللغة العربية على مرّ العصور فحاولت طمسها؛ وهو عنف وإرهاب لغوي كانت أهدافه الهيمنة على كلّ ما هو موجود في أرضها، ومحو ثقافتها والقضاء عليها. وفي ضوء ذلك، تسعى كلّ لغة إلى أن تحتفظ بخصوصيتها إلى حين، وبمعنى آخر تقف موقف دفاع والتفرّج على غيرها من اللغات، وإنّ تقلّص قيمة اللغة العربية جعل تشابه مع اللغات الأخرى، ففقدت مكانتها - في بعض الأحيان - سواء في الإدارة، أو العلم أو التواصل⁴.

1 - اللغة والهوية

¹ - ينظر أحمد عزوز، اللغة والاتصال، مجلة التربية، دولة قطر، العدد 150 لسنة 2004، ص: 266.

² - ينظر عبد الحميد عبد الواحد، اللسان العربي: الحاضر والآفاق، ضمن اللسان العربي والتلقي، مركز دراسات الوحدة العربية، ص: 64. - د. عبد الرحمن عزي، فقه اللغة وعنّف اللسان والإعلام في المنطقة العربية، ضمن كتاب اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز الوحدة

³ العربية، ط: 1، سنة: 2007، بيروت، ص: 24.

⁴ - ينظر د. عبد الرحمن عزي، فقه اللغة وعنّف اللسان والإعلام في المنطقة العربية ضمن كتاب اللسان العربي وإشكالية التلقي، ص: 26.

وقد كانت الشعوب الإسلامية والعربية قديما تتشبّث بتعلّم اللغة العربية رغبة واعتزازا بمعرفة قيم دينها وشريعته السمحة، والحضارة والعلم، ولغة تُنبّأ بها المناصب العليا، أما حديثا وعندما تراجعت قيمتها، فقد فضّلت هذه الشعوب مثل غيرها تعلّم الإنكليزية والفرنسية وغيرها من اللغات معتقدة أنّ التخلّي عن اللغة العربية هو السبيل لاكتساب العلم والتكنولوجيا¹.

ويرى عبد السلام المسديّ أنّ هناك ضربا من الحقائق الجديدة، يبدو القائمون على مصائر الأقطار العربية في غفلة عنها، فإن لم يكونوا كذلك فربّما يرونها من الخيارات القابلة للتأجيل؛ حتى ولو أمسى التأجيل هو قاعدة العمل لا استثناءها.

فهناك حقائق ذات بعد سياسي، قلّما ينتبه أهل الشأن بيننا إلى الصلة الوثيقة بين القرار السياسي ومقوّمات الهوية الحضارية مهما نأى الموضوع في ظاهره عن مسألة الانتماء، وقد لا يخطر بالبال ما يعود من ذلك كلّ على مستقبل علاقة الناشئة بهويتهم الحضارية من خلال إعادة تشكيل هويّتهم اللغوية².

ولم "يبالغ العلامة ابن خلدون حين أشار إلى أنّ استعمال اللسان العربي صار من شعائر الإسلام وطاعة العرب؛ ولذا فإنّ اللغة في المدرسة الخلدونية هي الشرعية في الهوية والوجود، وإن التعامل مع موضوع اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية كلية ومرتبطة بثوابت الاستعمال، وبعلاقة القوّة، وروابط الثبات للحفاظ على الهوية، هو تعامل مع مقوّمات الحضارة وعناصرها الأساسية وسماتها غير القابلة للتغيير"³.

فالملاحظ أنّ المسألة اللغوية عند ابن خلدون تندرج في سياق اهتمامه بال عمران البشري والتفكير الاجتماعي، وهي ذات علاقة وثيقة بالمجتمع، إذ تتغيّر بتغيّره، وتفسّد بفساد اللسان الأول، ولذلك يربط اليوم الدارسون بين اللغة والتنمية التي من ثمارها العمران، وهي فكرة مؤكّدة لدى ابن خلدون، وبالتالي فاللغة عنده لا تنفصم عمّا تنقله من القيم.

فهو يربطها بالواقع، ويراهنا نابعة منه، لأنّها شديدة الصلة بالممارسة والاستعمال، أي بالظاهرة الاجتماعية في وحدتها وكيّتها، فاللغة ملكة في اللسان تحصل بممارسة فعل الكلام ومعاودته، حتّى ترسخ منوالا، يرتسم في المخيال بعد طول معايشة وحفظ لكلام العرب، فتصبح صفة راسخة في الفرد، ينسج على منوالها ويعيد إنتاجها من جديد، فالممارسة هي التي تبني المنوال⁴، على رأي أحمد بن فارس (392هـ)، وتشومسكي في العصر الحديث.

ولكن ذلك لا يتجلّى اليوم في العربية لذهاب سلطتها بين العرب؛ حتّى بين بعض أبنائها لشعورهم أنّ أمّتهم لم يعد لها ذلك الاحترام، والتقدير الذي اكتسبته عبر العصور على المستوى السياسي والإبداعي والاقتصادي والعلمي.

ولا شك في أنّ اللغة إذا انتفت منها القيمة التي تشحن بها النفوس والعزائم أثّرت في العقول، فكبّلتها عن الإبداع والاختراع، ويكون ذلك بترسيخ عبارات في العقول مثل: "الله غالب"، "ولا يمكنك فعل أي شيء"، "وهذا عمل عربي"،

¹ - ينظر د. عبد الرحمن عزيم المصنر السابق، ص: 26.

1- ينظر د. عبد السلام المسدي، لغة الطفل العربي والتحديات الراهنة، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، العدد التاسع، صيف 2008، ص: 134.

³ - ينظر د. عزيم عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 10.

⁴ - ينظر محسن بوعزيزي، اللغة وروابط الهيمنة عند ابن خلدون، ضمن اللسان العربي وإشكالية التلقّي، ص: 150.

وهو تبرير لعدم القدرة على تغيير الواقع من المآسي التي يعيشها الفرد العربي، أو مثل قوله تعالى: "قل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا"¹.

وهي عبارات لغوية تكبل العقل العربي، وتؤدي إلى السلبية والإحباط والعجز وفقدان الإرادة، مما أدى إلى تمجيد قوانين المحتل وحضارته وممارسته مظاهره، فكان لوم الآخرين دوماً هو المخرج لتبرير الضعف والانتكالية. إن مثل هذه العبارات تنخر الجسم والعقل معا من الداخل، ولا تتركه ينطلق في سماء الإبداع وتحقيق الطموحات التي بناها منذ مرحلة الشباب؛ لأن اللغة هي التي تمد العقل القدرة على التفكير، والاجتهاد في حلّ المشاكل المعقدة ومواجهة الضغوط المتنوعة.

إن قبول مثل هذه العبارات في الواقع اللغوي ونقلها؛ وهي لا تحمل القيمة الحقيقية التي يرتضيها المجتمع أو يطلبها نحو: "هل تعتقد أنك ستغير شيئا؟" أو "إنك لا تتمكّن من التغيير والإصلاح"، ويردّون بأنهم لا يعتقدون ذلك حتى لو حسنت النوايا لهو دليل على أن ثمة جزء في اللغة خارج عنها؛ بل هو من فعل التلقظ أو المتكلم؛ ذلك أنك تستطيع أن تغير منها وتحذف النفي في عبارة "لا تستطيع"، فتقول "تستطيع" لتصبح اللغة حاملة للقيمة التي وجدت من أجلها².

فالكلمات ليست محايدة، ولا بريئة؛ وكذا العبارات والجمل، ولذلك نراها تتميز بالسلطة، فهي ليست بالبساطة التي يتصورها بعض الناس، فبعضها ملغم، أو مفحّخ بمخاوفنا وهواجسنا، فبالكلمات تكون البدايات وتكون أيضا النهايات، فهي التي تتكلم حتى ولو كانت مكتوبة على الجدران، ومن الكلم ما أبكم ومنه ما قتل، ومن الإشارات والعلامات ما ظلّم.

وليس اللغة العربية مجرد وسيلة للتخاطب والتفاهم، بل هي رمز وهوية، رمز لوحدة أمة عريقة، لها تاريخها وتراثها عبر القرون، ورمز لحضارة امتدّت في مساحة واسعة في هذه الكرة الأرضية، وقد تواصل بها تاريخ البشرية، فكانت لغة العلم والأدب والفلسفة لعدد كبير من شعوب الأرض، وهي لغة القرآن الكريم الذي وعد الله سبحانه بحفظه وصونه: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"

وبالتالي فإن تفكك البنية القيمية الاجتماعية تأثيرا مباشرا على البنية اللغوية التي تفقدها الصفاء ومستوياتها التي يسعى النظام التربوي تعليمها للناشئة.

وقد نلمس هذا التفكك فيما أصاب اللغة العربية الفصحى في بنيتها القيمية، فظهر الفساد اللغوي، وأصبح الهجين صفة ملازمة للفعل الكلامي للأفراد في الساحات المختلفة بدءا من العائلة، ثم المدرسة فالمسجد، والإذاعة بل في الدروس الجامعية في الاختصاصات المختلفة التي يفترض أن تكون هي التي تصون لها تلك القيمة.

2 - الأصل في اللغة احتواء القيمة

ولعل ما سبق يدعونا إلى القول إن الحديث عن اللغة يتجاوز ذلك المفهوم الذي تمّ حصره في الوظيفة الخاصة بالاتصال والتواصل، أو غايتها الأساسية هي كذلك، أو في تحديدها على أنها مجرد نظام من العلامات والإشارات على

¹ - د. غياث بوفلجة، معوقات العقل العربي وتحدياته، مخبر البحث في علم النفس وعلوم التربية، دار القدس، وهران، سنة: 2011، ص: 35.

² - غياث بوفلجة، المرجع نفسه، ص: 53.

حدّ قول دي سوسير، وأنها تدرس لذاتها ومن أجل ذاتها، أو كما حدّدها ابن جني في قوله: "أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"¹.

فالموظيفة الأساسية للغة هي - بلا شك- التعبير عن الأحاسيس والآمال والآلام، ولكن هي أساسا كما أشار إلى ذلك د. عزي عبد الرحمن في قوله: "إنّ الأصل في اللغة احتواء القيمة ونقلها"²، ذلك "أنّها تحوي أسى ما يمكن أن يتعلّق به الفرد من معان"³.

ولمّا كانت اللغة تضمّ المعاني السامية والمثل العليا، والقيم النبيلة، فكيف دخل العنف إلى اللغة، وهو ليس صفة فيها أو ليس ضمن قيمتها؟.

يرى د. عزي "أنّ الارتباط متلازم بين اللغة وقيمها، فهي تنشئ متعلّمها على إتقان استخدام الكلمات، والألفاظ في سياقاتها التعبيرية والقيمية وفق ضوابط وقواعد محدّدة"⁴.

ويرى أيضا أنّ اللغة العربية تنفرد تاريخيا بقدرتها على امتلاك القيمة، وتمثّلها لها بفعل أنّها لغة القرآن الكريم، أي إنّها لغة مقدّسة رحيمة تضيء هيبتها وجمالها وجلالها على متحدثيها متى لم تتعرّض قواعدها ومعانيها إلى الإفساد اللغوي، وما يترتّب عنه من عنف لسانی أيضا⁵.

ولعلّ مصطلح العنف اللساني يحتاج إلى نوع من التدقيق، فليس المقصود به تلك الألفاظ والتراكيب التي ينطقها المتكلّم أو يكتبها، فيكون من ورائها الإساءة الأخلاقية أو الإيذاء للمخاطب فحسب؛ وإنّما هو الإخلال بالبنية القيمية للغة إلى جانب البنيات الأخرى التي حلّلتها اللسانيون كقواعد الاشتقاق والأصوات وما إلى ذلك.

وبعدّ هذا العنف اللساني دخیلا في مرحلة تاريخية محدّدة أو عبر مراحل على اللغة، إذ مارسه الأفراد أو فئات اجتماعية معيّنة، وبمعنى آخر فهو لغة أخرى تمّ إدخالها على اللغة الأصلية التي من خصائصها القيمة، وهو ما يمكن أن أطلق عليه بنظرية الصفاء أو النقاء اللغوي لدرء المفسد واللعن عنها أو ما ينعت اليوم بالأمن اللغوي أيضا. وهكذا فالقيمة هي الأصل في اللغة، أي إن الفساد أقحمه فيها المتكلّمون، فهو من فعلهم، وهو خارج عن بنية اللغة وعن قيمتها.

فالفساد اللغوي له تأثير سلبي على البنية الاجتماعية، فهو ليس من صميمها؛ ونتيجة هذا الفساد اللساني وهذا العنف، تعرّضت بسببه لغات كثيرة مع الزمن إلى التغيير، بل إلى التدمير، ولهذا خصّصت هيئة الأمم المتحدة يوم 21 فبراير اليوم العالمي للغة الأم، بل يوم 18 ديسمبر اليوم العالمي للغة العربية.

وظهر باحثون يدعون إلى وضع حدّ لما يعرف بموت اللغات على غرار ما ألفه كلود حجاج⁶، حيث يرى أنّ كلّ سنة تنطفئ خمس وعشرون لغة، ومعها المجموعات البشرية والثقافات، وهكذا يوجد اليوم ما يفوق 6000 لغة، وإذا لم

¹ - ابن جني، الخصائص، ج:1، ص:34.

² - د. عزي عبد الرحمن، فقه اللغة وعنف اللسان والإعلام في المنطقة العربية، ضمن اللسان العربي وإشكالية التلقّي، ص:11.

³ - د. عزي عبد الرحمن المصدر نفسه، ص:11.

⁴ - د. عزي عبد الرحمن المصدر نفسه، ص:13.

⁵ - ينظر المرجع نفسه، ص:13.

⁶ Voir, Claude Hagège, Halte à la mort des langues.

تتغير كيفية التعامل مع اللغة، فنصف هذا العدد سيموت، ففي أواخر القرن الواحد والعشرين سيصبح 2500 لغة فقط، هذا إذا لم يكن أقل إذا راعينا بأنه يمكن أن تكون السرعة في الانقراض والانطفاء لتلك اللغات¹.
"فلاستخدام الفردي قد يدخل إفسادا لغويا، إذا كان المتكلم لا يمتلك "الأهلية اللغوية"²، وهو ما يطلق عليه ابن خلدون الملكة اللسانية، والكفاية اللغوية من منظور شومسكي، وإذا كانت هذه المصطلحات متقاربة في المفاهيم، فالواقع إن د. عزي يرى أن الأهلية تتميز بالبنية القيمية، حيث يقول: "ويقصد بذلك قدرة المتحدث على الكلام وفق البنية النحوية وكذلك البنية القيمية التي تنتهي إليها اللغة"³.

4 - العنف اللساني من فعل التلقظ وليس من اللغة

يخصّ العنف اللساني فعل الكلام وليس اللغة، على الرغم من أن اللغة تتأثر بدورها باللفظ المنطوق. والمدقق في العنف اللساني لا يلفيه قيمة؛ وإنما يعدّ صفة منبوذة، كما أنها ليست صفة قائمة في حدّ ذاتها، ولكنها ردّ فعل غير متوازن على قول أو فعل أو وضع أو ظاهرة تجعل المتكلم يفقد السيطرة على اللغة⁴ أو لا يمتلك القدرة التي تتحكم في الحديث، فيلجأ إلى جملة من الانحرافات التي تكون من صنع الكلام حتى وإن كان المتحدث قد ورث ذلك من المتحدثين الآخرين أي يكون قد قلدهم فيما يتخاطبون به في مثل تلك المواقف.
وهناك شيء آخر ألا وهو أن اللغة فيها من المرجعية والقوائم من الألفاظ والتعابير ما يجعل الفرد إذا تربّث تمكن من أن ينقل من تلك القائمة ما هو قبيح حتى وإن كان في موقف أو وضع يتطلب منه الإيذاء أو إصدار فعل كلامي ليس من اللغة، وهنا تتدخل المعرفة بها وبمواقف استخدامها.

ويستدلّ عزي عبد الرحمن على ما سبق بآيات قرآنية توضّح مدى دلالة الكلمة إذا حملت مخزونا قيميا ثابتا من جهة ودفعت الإنسان إلى ما هو أفضل من جهة أخرى، قال تعالى: "ألم تتركب ضرب الله مثلا، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء"⁵.

إن قيمة الشجرة تكمن في الوصف الذي تبعها ألا وهو الطيب، ومن ثمّ تؤدّي اللغة وظيفتها القيمية، وحينما تتّصف الكلمة التي تبني بها عددا لا نهائيا من الجمل والتراكيب، فتحمل في طياتها القيمة التي من أجلها كانت تلك اللغة؛ أما الكلمة التي تفتقد القيمة فليس لها قرار، قال عزّ وجل: "ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض"⁶.
وتتّصف الكلمة بالصواب والصدق والعدل والحق أيضا؛ فتكون ذات قيمة كقوله تعالى: "لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا"⁷. وقال عزّ وجل: "وتمّت كلمة ربك صدقا وعدلا"⁸.

¹ Claude Hagege, p. 9.

² د. عزي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 15.

³ د. عزي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 16.

⁴ ينظر د. عزي الرحمن، المرجع نفسه، ص: 16.

⁵ - سورة إبراهيم، الآية 24.

⁶ - سورة إبراهيم، الآية 26.

⁷ - سورة النازعات، الآية 38.

⁸ - سورة الأنعام، الآية 113.

وتكمن قيمة الكلمة في أنها ترتفع إلى المنزلة العليا وترفع صاحبها، فقال تعالى: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه"¹.

3 - العنف اللساني من فعل التلقظ وليس من اللغة

يخصّ العنف اللساني فعل الكلام وليس اللغة، على الرغم من أن اللغة تتأثر بدورها باللفظ المنطوق. والمدقق في العنف اللساني لا يلفيه قيمة؛ وإنما يعدّ صفة منبودة، كما أنها ليست صفة قائمة في حدّ ذاتها، ولكنها ردّ فعل غير متوازن على قول أو فعل أو وضع أو ظاهرة تجعل المتكلم يفقد السيطرة على اللغة² أو لا يمتلك القدرة التي تتحكّم في الحديث، فيلجأ إلى جملة من الانحرافات التي تكون من صنع الكلام حتى وإن كان المتحدث قد ورث ذلك من المتحدثين الآخرين أي يكون قد قلّدهم فيما يتخاطبون به في مثل تلك المواقف.

وهناك شيء آخر ألا وهو أنّ اللغة فيها من المرجعية والقوائم من الألفاظ والتعابير ما يجعل الفرد إذا تربّث تمكّن من أن ينقل من تلك القائمة ما هو قبيح حتى وإن كان في موقف أو وضع يتطلب منه الإيذاء أو إصدار فعل كلامي ليس من اللغة، وهنا تتدخل المعرفة بها وبمواقف استخدامها.

ويستدلّ عزّي عبد الرحمن على ما سبق بآيات قرآنية توضّح مدى دلالة الكلمة إذا حملت مخزونا قيميا ثابتا من جهة ودفعت الإنسان إلى ما هو أفضل من جهة أخرى، قال تعالى: "ألم تتركب الله مَثَلا، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء"³.

إن قيمة الشجرة تكمن في الوصف الذي تبعها ألا وهو الطيب، ومن ثمّ تؤدّي اللغة وظيفتها القيمية، وحينما تتّصف الكلمة التي تبني بها عددا لا نهائيا من الجمل والتراكيب، فتحمل في طياتها القيمة التي من أجلها كانت تلك اللغة؛ أمّا الكلمة التي تفتقد القيمة فليس لها قرار، قال عزّ وجل: "ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض"⁴. وتتّصف الكلمة بالصواب والصدق والعدل والحق أيضا؛ فتكون ذات قيمة كقوله تعالى: "لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا"⁵. وقال عزّ وجل: "وتمّت كلمة ربك صدقا وعدلا"⁶.

وتكمن قيمة الكلمة في أنها ترتفع إلى المنزلة العليا وترفع صاحبها، فقال تعالى: "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه"⁷.

4 - المناهج التربوية وربط تعليم اللغة بالبنية القيمية

يرى د. عزّي أنّ كثيرا من المناهج التربوية تركز على تدريب الطلاب والمتعلّمين على قواعد النحو من دون ربط ذلك مع القيمة، ممّا يؤدّي بالمتعلّم؛ بل المتحدث بهذه اللغة إلى أن يصبح معزولا عن الجوّ القيمي الذي يميّزها.

¹ - سورة فاطر، الآية: 10.

² - ينظر د. عزّي الرحمن، المرجع نفسه، ص: 16.

³ - سورة إبراهيم، الآية: 24.

⁴ - سورة إبراهيم، الآية: 26.

⁵ - سورة النازعات، الآية: 38.

⁶ - سورة الأنعام، الآية: 113.

⁷ - سورة فاطر، الآية: 10.

ولا ريب في أنّ هذا الاتجاه يدعو إلى تدوّن اللغة من جهة من حيث بنيتها الفوقية كالنحو والصرف والتراكيب وما إلى ذلك؛ ليتم التواصل بصورة سليمة ومؤدية للأغراض التواصلية، وفي الوقت نفسه تكون مشحونة بالقيم التي تنقلها، ولا تخلو لغة من هذه القيم، فيكفي أن نحسن اختيار النصوص التي نعلّمها¹.

5 - الإعلام وبنية لغة القيم

لقد كانت للوسائل الإعلامية المختلفة دور كبير في إشاعة اللغة العربية بين الجماهير، فأسهمت في تطويرها وتطويعها وتهذيبها فجعلت كثيرا من تراكيبها ومفرداتها ومصطلحاتها متداولة في الخطابات الشخصية والرسمية، كما كان لها دور في استحداث ألفاظ سواء عن طريق التعريب أو التوليد أو الترجمة، أثرت بها وأغنت القاموس اللغوي العربي، وقد دلّ ذلك على مرونتها وقدرتها العجيبة في التعبير عن المواقف والمستجدّات من فنون وآداب وعلوم ومخترعات وما إلى ذلك.

ولكن ذلك لم يمنع من تسرّب الفساد اللغوي الذي كان لعلّة أو بدونها، ولكن عموما هو نوع من الأذى الذي أصاب اللغة العربية في مفاصلها.

وإذا كان الفساد يناقض النقاء اللغوي الذي كان يحافظ عليه علماء اللغة العربية منذ القديم، فإنّ د. عزي عبد الرحمن يشير إلى مسألة أخرى لا تقلّ أهمية، وهي أنّ اللغة "قد تمّ إفراغ الجزء الأكبر منها من القيمة؛ مثلما نلّف في ذلك في اللغة الإخبارية التي تعكس خطابا يكاد يكون أحاديا في الأسلوب، كالقول: "استقبل" و"صافح" و"كان في توديعه"

و"أشاد" و"ندّد" و"استنكر" و"دشّن"، وتركزت المحادثات بين الجانبين حول العلاقة الثنائية وبين البلدين². وهي أساليب وتراكيب من شدّة ما اعتاد على سماعها المتلقّي أصبحت بلا ريب لا تضيف معرفة أو معلومة جديدة؛ بل لا تثير في ذهنه أية دلالة وقل بدون قيمة معرفية، فغدت على حدّ تعبير رولان بارت في درجة الصفر.

6 - إفراغ اللغة من قيمتها في الخطابات المعاصرة

يركّز عزّي عبد الرحمن على أنّ اللغة مصدر القيمة، ويلاحظ في أنّه متى تمّ إفراغها منها داخل المجتمع أصبح الاتصال بها اعتباطيا بل مضرا بالبنية الاجتماعية.

وإذا كان العنف اللساني متعدّد الأوجه، ومتنوّع الأشكال ومختلف المستويات، فالواقع يبرز أنّه بات ظاهرة مدمّرة انعكست على حياة الأفراد والمؤسسات على حد سواء، وإذا كان مستواه الأدنى يتمثّل في عدم الرد على التحية مثلا، فإنّ مستواه الأعلى يصل إلى شتم الأفراد باستخدام الألفاظ النابية، وسبّ الدين، والبلاد والعباد، وهو يشير في مثل هذه الأحوال إلى أنّه عندما تفقد أو تتخلخل اللغة الناقلة للقيم في المجتمع يمكن استبدال بيت حافظ إبراهيم الذي يقول فيه عن الأخلاق:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا.

¹-دعزي عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص:16.

²-د. عزي عبد الرحمن، ص:20.

وقد نلّفني في المحادثات كثيرا من الأفراد لا يستطيعون أن يجروا حوارا متواصلا ومتسلسلا دون إدخال ألفاظ هجينة، كما أنّ الحوار الهادئ لانعدام قيمة اللغة لم يعد هو السمة التي تتجلى في المحادثات والتكلمات بين الأفراد وبخاصة الشباب.

ويعود هذا الأمر إلى تفكك البنية القيمية للغة الذي يؤدي حتما إلى تفكك علاقة الفرد بالكلام والعلاقة بين الآخرين، وهكذا فكلما ابتعد الكلام عن القيمة فقد أجزاء كثيرة من معانيه، ودخل في الاعتباطية¹. ولعلّ تفكك تلك البنية القيمية للغة يلاحظ في بعض ما تبثّه الوسائل الإعلامية من أخبار مضلّة في تراكيب وجمل سليمة ومستقيمة من حيث النحو، إلّا أنّها تحمل دلالات ومعان خاطئة، أو لا يقبلها العقل، ولعلّ ذلك يتناقض مع القيمة للغة.

وفي الأخير إن إعادة إحياء البنية القيمية للغة في نظر د.عزي تعيد لها قوتها كمصدر إشعاع مؤثّر في اللسان والإعلام. فلسانيا يمكن العمل على إعادة الربط بين فعل الكلام، والنظام الثقافي والتعليمي والقيمي الكامن في المجتمع، وإعلاميا يمكن إدخال مبدأ المسؤولية الاجتماعية في أذهان القائمين على وسائل الإعلام والجمهور المتلقي، واعتبار استخدام هذه الوسائل حملا يتجاوز المنفعة المادية، وتحقيق الأهداف السياسية.

وتتضمّن هذه المسؤولية إدراج القيمة في لغة الإعلام، وبرامجها، لتصبح اللغة في الإعلام رسالة حضارية تنقل القيم التي تشيّد صرح النهضة التي كان ينشدها المجتمع العربي منذ تحرّر من الهيمنة الاستعمارية، وإجرائيا فإن ذلك يشمل اعتبار "عنف الإعلام" سمة سلبية منزوعة القيم²، وهو أمر يتعرّز أكثر إذا شعر كل فرد بمسؤوليته اتجاه هذه الأمة واضعا وراء ظهره المصلحة الخاصة، وتبنّى ما تطمح إليه الأمة؛ ومما ترمي إليه أن تبقى اللغة نقية وأداة اتصال وناقلة للحضارة ومصونة لقيمها.

وبفقدانها قد تتيسّر الهيمنة اللغوية التي تؤدي بدون شكّ إلى تفكك البنية اللغوية التي تكون نتيجتها تفكك علاقة الفرد عن المجتمع وعن هويته وتاريخه.

¹ -د.عزي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 24.

² -د.عزي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص: 38.